

الإصلاح الإسلامي

في أواخر شهر مايو (١٩٩٥) عُقد بمدينة هامبورج بألمانيا مؤتمر كبير عن « الإسلام في العالم وفي ألمانيا » ، وإذ كنت مدعوًا لهذا المؤتمر ، كأحد المحاضرين فيه ، فقد طلب مني المؤتمر أن ألقى محاضرة يكون عنوانها « هل يمكن إصلاح الإسلام ؟ » وقد أُلقيت المحاضرة باللغة الإنجليزية ، مع وجود ترجمة فورية إلى اللغة الألمانية . وبعد المحاضرة التي استغرقت حوالي ساعة ونصف ، بدأت الأسئلة من جمهور الحضور ، وكانت المفاجأة أنهم جميعًا - وهم صنفوة المجتمع الثقافي الألماني - يجيدون الإنجليزية ، وأنهم استمعوا إلى المحاضرة منى مباشرة ، باللغة الإنجليزية ، ولم يلتفتوا إلى الترجمة الألمانية ، بهذا تنحى المترجم ، وبدأ الحوار بيني وبين الحاضرين باللغة الإنجليزية مباشرة واستمر لمدة ساعة ونصف أخرى .

وإذ كانت المحاضرة قد لقيت استجابة هامة من المجتمع الثقافي الألماني ، ووسائل الإعلام الألمانية ، وتم نشرها باللغة الألمانية ، فإنه يكون من المهم أن ننشر عرضًا تقريبيًا لها ، يراعى فيه الاختلاف بين اللغات ، كما يلاحظ فيه اختلاف جمهور القراء عن جمهور المستمعين الألمان . وها هو العرض العربي لأساسيات المحاضرة .

طلب منى المؤتمر أن ألقى محاضرة اختار هو عنوانها ليكون « هل يمكن إصلاح الإسلام ؟ » . وللإجابة على هذا السؤال فإن الأمر يقتضى الإجابة على أربعة أسئلة أخرى : (١) ما المقصود بلفظ الإسلام فى هذا الصدد ؟ (٢) لماذا يُراد إصلاح الإسلام ؟ (٣) هل يقبل التقليديون والمتطرفون أى إصلاح للإسلام ؟ (٤) كيف يكون الإصلاح ؟

أولاً : ما هو المقصود بلفظ الإسلام بصدد المحاضرة :

الإسلام لفظ عام شامل لا يمكن استعماله فى سياقات علمية أو دراسات ثقافية أو نقاشات سياسية دون تحديد للمقصود منه ، وإلا دارت السياقات واستمرت الدراسات وطالت النقاشات فى نقاط غير محددة ، وفى مواد غير منضبطة ، وفى مفاهيم غير واضحة ، مما يحدث اضطراباً فى الحديث ، ولبلة فى الفهم وقلقلة فى النتائج .

فهناك الإسلام الدين ، والإسلام الشريعة ، والإسلام الفقه ، والإسلام التاريخ ، والإسلام الفلسفة ، والإسلام الفكر . والإسلام الحضارة .. وهكذا ، فإن للإسلام أوجه متعددة ومباحث مختلفة وأنشطة متباينة . فما المقصود بالإصلاح فى مفهوم السؤال الذى تجيب عنه هذه المحاضرة ؟

حتى يكون الأمر واضحاً ومحددًا فإن المقصود هو « الفكر الإسلامى » ، أى إنه يمكن إعادة صياغة السؤال الذى طرحه

المؤتمر ليكون كالتالى : « هل يمكن إصلاح الفكر الإسلامى ؟ » .

ثانياً : لماذا يراد إصلاح الإسلام ؟ !

على أن السؤال « هل يمكن إصلاح الفكر الإسلامى » لابد أن يتداعى إلى سؤال آخر أهم وأخطر هو « لماذا يراد إصلاح الإسلام ، أو بمعنى أدق : الفكر الإسلامى ؟ » . والإجابة على هذا السؤال قد تقدم عشرات المسائل ، غير أن أهم هذه المسائل ، وأخطر الأسباب فى تقديرى ، هى ثلاثة : تحول الإسلام إلى أيديولوجيا ، وغلق باب الاجتهاد الفقهى ، وضرب العقلية الإسلامية ومنعها من أى تفكير علمى .

(أ) فمئذ عهد الخليفة الرابع - على بن أبى طالب (٦٥٥ - ٦٦٠ م) بدأ صراع سياسى على السلطة (وكانت آنذاك الخلافة الإسلامية) بين فرقاء ثلاث : فريق الخليفة على ، وفريق المطالب بالخلافة حاكم الشام معاوية بن أبى سفيان ، وفريق الخوارج (أو الشراة) وهم جماعة انشقت من فريق الخليفة على ، وصاروا أعداء له ولخصمه معاوية .

وفى هذا النزاع السياسى فإن كل فريق لجأ إلى الشريعة ، وإلى القرآن ، يستخدمه فى تبرير موقفه وتسويغ تصرفه وإضفاء الشرعية على أعماله ، ودمغ خصومه بالكفر والإلحاد ؛ ومن هنا بدأت الأيديولوجيا الإسلامية ترسخ وتتولد وتغير معالم الفكر الدينى تغييراً تاماً ؛ إذ صار هذا الفكر يخدم الأيديولوجيا ويبررها .

فالإسلام شريعة عامة إنسانية ، ليست مشروعًا سياسيًا ، ولا هي نظام حكم ، ولا هي حزب لجماعة ، ولا هي احتكار لعصبة ، فإذا ما حدث أن تداخلت السياسة مع الدين ، أو تخالفت الحزبية مع الشريعة ، تحول الدين وانتهت الشريعة إلى أن يكونا أيديولوجيا ، أى معتقد جامد (دوجما) ، سياسى أساسا وحزبى أصلا ، شمولى صارم (ديكتاتورى) ، يمنع أنصاره من أى جدل أو نقاش ، إذ يفرض عليهم مبدأ « السمع والطاعة » باسم الدين وسيف الشريعة ، ويدمغ من يخرج على هذا المبدأ ، كما يصم خصومه ، بالكفر والإلحاد .

الشريعة سمحة تجيز ، بل تدعو إلى ، وجود آراء مختلفة ، وقيام مذاهب متباينة ، وظهور آراء متعددة ؛ أما الأيديولوجيا فإنها تركز إلى الوطنية أو تتحصن بالدين ثم تقتصر على ما يؤيدها وما يعضدها ، حتى وإن حرقت وزيّفت ، ثم تزعم أن ما تركز إليه وتتحصن به هو المطلق ، فلا يجوز لأحد أن ينقده أو يبدى رأيا مخالفاً أو يذكر قولاً معارضاً ، والا عد خائناً أو كافراً ملحدًا جزاؤه القتل .

هكذا ، تحولت الشريعة إلى أيديولوجيا ، وأصبحت كل نظم الحكم - على مدى التاريخ الإسلامى - تستند إلى أيديولوجيا خاصة بها ، اتبعها فى ذلك حواشى الحكام والإداريين وفقهاء السلطة . وكان الحاكم - خليفة أو سلطاناً أو ملكاً أو أميراً -

يستند في تبرير الأيديولوجيا وإضفاء شرعية دينية عليها - إلى أنه خليفة الله أو ظل الله على الأرض أو المعين بنعمة الله أو المنفذ لأحكام الله وهكذا ، بينما صارت المعارضة دينية أيديولوجية كذلك ، تقوم على اتهام الحاكم بالكفر ، ووصم المجتمع بالإلحاد ، تعتمد في ذلك على أنه لا يطبق ما أنزل الله ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ .

ولم تقبل جموع العامة من المسلمين هذا الاستغلال السياسي للدين والتوظيف الحزبي للشرعية ، فانسحبت من ساحة الحياة العامة وانكفأت على معاشها اليومية ، وقد صار الدين لديها مجرد أداء للشعائر ، كما أصبحت الشريعة عندها صيغة تختلط بالتراث الشعبي (الفولكلور) ، وتتجلى في الموالد والأذكار وزيارة الأضرحة واحتفالات المقابر والتبرك بالأولياء وأداء الندور .

بهذا اغترب الفكر الديني الصحيح بين مغالاة السياسة والحزبية من جانب ، وجهالة الاتجاهات الشعبية من جانب آخر .

(ب) لأسباب سياسية في الحقيقة ودينية في الظاهر فقد أمر الخليفة - في القرن الرابع الهجري أى العاشر الميلادي - بأن يقتصر العلماء على دراسة أقوال العلماء الذين سبقوهم ، وأن يكفوا عن أى اجتهاد بالرأى ، وهذا هو ما يسمى بقفل باب الاجتهاد فى الفقه الإسلامى (السنى) .

ومنذ هذا الوقت تجمد الفقه علمًا ما كان عليه وصار إليه ،

ولم يعد من حق أى عالم أو فقيه أن يتدر رأياً أو أن يتدئ فكراً ، بل عليه أن يستخرج من القديم حلولاً لأى وضع جديد ، فانتهى الأمر إلى أن يصبح الجميع مقلدين غير مجددين .

ومادام أى تجديد يعتبر تحريفاً ، وأى إبداع يعد ابتداءً ، فقد انغلت أبواب الاجتهاد الفقهي ، وقفلت منافذ الإبداع الشرعى ، ووقف تقدم المجتمع الإسلامى عند القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، لا يتحرك ولا يريم .

(ج) ظهر فى تاريخ الإسلام رجل هو الأشعري (٨٧٣ - ٩٤١ م) أدى به رأيه ، نتيجة ظروف سياسية أوقعته فى محنة شديدة ، إلى أن يقدم مذهباً ، أهم ما فيه أن الله قادر على كل شىء وخالق كل شىء ، وليس للطبيعة عنده فعل ما .. ، أما أفعال الإنسان ، فإن الله يفعلها ويخلقها فيه ، فينسبها الإنسان إلى نفسه ، ويزعم أنها من كسبه .. » .

وتلا الأشعري أبو حامد الغزالي (١٠٥٩ - ١١١١ م) فقال إن الله سبب لوجود العالم ، وأنه خلقه بإرادته وقدرته ، وأنه لا توجد إلا علية واحدة ، هى علية وجود المرید ، أى الله . أما علية الطبيعة ، أو ما تلحظه المشاهدة من وجود صلة بين شيئين كإضرام النار واشتعالها فى الأشياء من ثم ، أو إحداث إصابة تعقبها وفاة ، أو رش ماء يتبعه بلل ، ذلك كله أمر منكور ومردود إلى علاقة زمانية بين الشيئين ، أى حدوث أمر متتابع بينهما ،

فليست النار هي التي أشعلت الأشياء ، ولا الإصابة أحدثت الموت ، ولا الماء أنشأ البلبل ، إنما ذلك كله تهيؤ في ذهن الناس لحدوث هذه بعد تلك ، والفاعل في الحقيقة والسبب في الواقع ، هو الله سبحانه ، ولا هذا الشيء أو ذاك .

ونتيجة لانتشار فكر الغزالي ، وكتابه إحياء علوم الدين ، فقد انتهت تماماً - في العقل الإسلامي - فكرة السببية أو وجود قوانين ثابتة مطردة لحكم الأشياء ، كما انتهت كذلك فكرة حرية الإرادة ، ومبدأ مساءلة الإنسان عما يفعل ؛ فمادام كل فعل هو لله فالإنسان مجبور على ما يفعل ولا محل لمساءلته أبداً .

وهكذا تضافرت العوامل الثلاثة السالفة : تحول الدين إلى أيديولوجيا ، وقفل باب الاجتهاد الفقهي ، ومنع العقل الإسلامي من التفكير على أنس من السببية ونظام من العلية ، فأدى ذلك إلى جمود الفكر الإسلامي واغترابه عن روح الدين داخل الشريعة ، مما دعا جميع المفكرين المسلمين - منذ القرن الماضي - إلى الإلحاح المستمر على ضرورة تجديد الفكر الديني الإسلامي ، أو حتمية قيام إصلاح إسلامي شامل حتى يستطيع المسلمون مواكبة حركة الحياة الجارية ومعاصرة أساليب الحضارة القائمة .

ثالثاً : هل يقبل التقليديون والمتطرفون أى إصلاح للإسلام ؟

التقليديون أناس تشكلت عقولهم وتركبت نفوسهم من التراث السائد ، فأصبح هذا التراث هو رؤيتهم التي ينظرون إلى العالم

من خلاله ، كما صار هو مثلهم الأعلى ونموذجهم الأمثل . ومن شأن هذه العوامل أن تكبح قواهم الفكرية فلا يستطيعون الخروج من القوالب التي صبت فيها ، ولا يقدرّون على الانفلات من العناصر التي ينبغي أن يشوروا عليها ويعملوا على تغييرها ، فمع إدراك بعض المتميزين فيهم أنه لا بد من التجديد والإصلاح ، فإنهم غالبًا ما يكونون عاجزين عن أى تجديد أو إصلاح ، لانجباسهم فيما يراود تجديده أو إصلاحه ، ولافتقادهم إلى الأدوات التي تؤهلهم إلى هذا وذلك .

على أن الأخطر من ذلك أن هؤلاء التقليديين الذين لا يعملون فى سبيل التجديد أو الإصلاح يأبون على غيرهم أن يقوم بهذه المهمة بدلًا منهم ؛ إذ فى ذلك نزع لسلطانهم وتهديد لمكانتهم ، فضلًا عما فيه من معنى إثبات قدرة غيرهم على ما عجزوا هم عن تحقيقه ، لهذا فإنهم يكونون عقبة كأداء فى سبيل أى إصلاح أو تجديد ، وغالبًا ما يعملون على تهديد أى مجدد أو مصلح - ولو كان منهم - ووصمه بالخروج عن الملة ، وتقديم البدع ، ومحاربة الدين ، مستعينين فى ذلك بالنصوص التي وضعت فى عصور التخلف والانحطاط ، والتي هى الأساس فى طلب التجديد والدعوة إلى الإصلاح ، لتغييرها وتخطيها وتجاوزها تمامًا .

أما المتطرفون فهم جماعات أو أشخاص لا يتعلقون بالدين أو الشريعة ، لكنهم يتشبثون بالأيدولوجيا السياسية التي تستخدم الدين فى تبرير أهدافها وتستغل الشريعة فى تحقيق أغراضها ، وهم

قد نُشئوا في ذلك ، ودرجوا عليه فأحدث لهم هذا نوعا من « غسيل المخ » فصاروا يطبقون بين أيديولوجيتهم والدين ، ويخالطون بين جماعاتهم والشريعة ، فاضطرب الأمر لديهم ولم يعد عندهم تحلريد واضح أو رؤية سليمة أو نظرة نافذة .

ومع افتقاد الأيديولوجيين (أنصار الإسلام السياسي) لعناصر الحكم الصحيح على الأشخاص والأشياء والأفكار والآراء ، فإن مصالح بعض منهم تدفعهم إلى الإصرار على هذا الخطأ والاستمرار في هذا الانحراف ، بحيث تصبح أي محاولة لتخليص الدين من الأيدلوجيا أو فهم الشريعة بعيدا عن الأهداف السياسية والأغراض الحزبية - في تقديرهم - عملا منافيا للدين ، ونهجا مخالفا للشريعة . لقد أصبح الخطأ لديهم صوابا والصواب خطأ ، وفي هذه المعايير المقلوبة رأسا على عقب ، فإنهم يحولون دون أي إصلاح للفكر الإسلامي أو تجديد للروح الديني ، لأن من شأن هذا وذاك أن يقوض وجودهم وأن يهدد مصالحهم وأن يدفعهم إلى تغيير معتقداتهم الأيدلوجية تغييرا تاما ، وهذا أمر ليس سهلا ولا هو في قدراتهم الذاتية .

ومع تقدير كل ذلك فعلى المستنيرين أن يعملوا جادين وأن يكافحوا مصرين على تخليص الدين من الأيدلوجيا وتجريد الشريعة من الجمود واللاعقلانية ، حتى يستقيم الإسلام الصحيح وتستوى الشريعة الأصلية .

رابعًا : كيف يكون الإصلاح ؟

يرى كثير من المسلمين ضرورة تجديد الفكر الدينى وتحديث العقل الإسلامى ، خاصة مع ما يحدث للمسلمين فى بلادهم وفى خارج بلادهم ، نتيجة لاختلاط التدين بالتطرف (وهو أثر طبيعى وحتمى للأيدولوجيا الإسلامية أو الإسلام السياسى) غير أنه نظرًا للمحاذير التى سلف بيانها فإن التجديد والتحديث يدخل فى باب الكلام أكثر مما يدخل فى مجال الفعل ؛ ذلك أن أعدادًا غفيرة من المسلمين ، وخاصة ذوى المصالح والتقليديين والأمين ، يأملون أن يحدث تجديد الفكر الدينى دون تجديد حقيقى للفكر الدينى ، أى أنهم يشترطون لحدوث التجديد وقبوله ألا يحدث أى تجديد ، وتلك هى المفارقة الحقيقية فى العالم الإسلامى .

ومع ذلك فإننا نرى أن يكون إصلاح الفكر الإسلامى وتجديد الفكر الدينى وتحديث العقل الإسلامى ، باتباع ما يلى :

١ - تحديد الألفاظ والمعانى : فإذا ما وضع لكل لفظ مما يستعمله المسلمون تعريف جامع مانع (بلغة المناطقة) فإن ذلك سوف يؤدى إلى ضبط المصطلحات ووضوح المفاهيم وعدم اضطراب المعانى ، مما يؤدى - لا محالة - إلى إصلاح كبير فى الفكر الإسلامى .

وعلى سبيل المثال فإن لفظ الشريعة يعنى فى القرآن الكريم : الطريق ، السبيل ، المنهج وما مائل ؛ لكن لعدم تحديد المعنى منذ

البداية فقد تطور وتغير حتى أصبح يعنى الآن الأحكام القانونية ،
ما ورد منها فى القرآن الكريم وما صدر عن الفقهاء والعلماء
والقضاة . واختلط هذا بذلك فلم يعد أغلب المسلمين يستطيعون
تحديد المقدس من البشرى ، ولا ما جاء من الوحي مما ورد فى
أعمال الناس . وتحديد لفظ الشريعة - مثلاً - سوف يؤدى إلى
بيان وتأكيد أن حوالى ٩٠٪ مما يقال إنه شريعة إسلامية هو فى
الحقيقة فقه إسلامى .

ومثل لفظ الشريعة لفظ الحكم الذى لا يعنى فى القرآن الكريم
سياسة أمور الناس ، بل يفيد القضاء فى الخصومات أو الرشد
والحكمة .

٢ - تفسير القرآن الكريم وفقاً لأسباب التنزيل وتبعاً للظروف
التاريخية ؛ ذلك أن أكثر ما أصاب الفكر الإسلامى من تحريف
وانحراف جاء نتيجة لتفسير آيات القرآن على عموم ألفاظها ، وهو
أسلوب اتبعه الأيديولوجيون ثم تبعهم فيه التقليديون مما أدى إلى
تفسير القرآن الكريم على غير ما أراد التنزيل ، واقتطاع جزء من
آية لاستعماله كشعار للسياسيين والحزبيين والمتطرفين . وأسباب
تنزيل القرآن غالباً ما تكون واضحة فى سياق الآيات نفسها ،
والإفهامى مذكورة فى التراث بنفس الأسانيد والقوة التى يقوم
عليها كل التراث الإسلامى ومنه أحاديث الآحاد ، وهى أغلب
الأحاديث المروية عن النبى ﷺ .

أهم مثل فى ذلك أن الخوارج على المجتمع ، والمتطرفين

والإرهابيين على مدى التاريخ ، يرفعون جزءاً من آية ليصموا الحكومات والمجتمعات بالكفر والإلحاد بما يبرر لهم الاغتيال والعنف والتدمير ، وهذه الآية هي : ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ . ولا بد أن يجد الطغاة والبغاة أى مطعن على أى مجتمع أو أى نظام فيحكمون عليه بالكفر وفقاً لاستعمال الآية على عموم ألفاظها ، أما إذا نظر إلى أسباب تنزيل الآية ، وهو وارد فى سياق الآيات السابقة والتالية يتبين أن لها معنى آخر تماماً ، ففى القرآن ﴿وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله .. ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ . ﴿وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾ .

إن تفسير آيات القرآن الكريم وفقاً لأسباب التنزيل وتبعاً للظروف التاريخية يؤدى إلى تقديم تفسير جديد أصح وأدق وأضبط من التفسير الذى يبنى على مجرد التفسير اللفظى .

٣ - الفصل بين السياسة والدين : ذلك أن السياسة ما إن

تدخل على الدين إلا حولته إلى أيديولوجيا (على المعنى السالف بيانه) وما إن تتصل بالشريعة إلا وغيرت من صميمها وحولت من مفاهيمها . فالسياسة تخدم نفسها وأصحابها ولا تبعاً بأى قيمة أو مبدأ ؛ بل تستغل الدين لأغراض حزبية وتوظف الشريعة لأهداف شخصية .

إن العمل السياسي ينبغي أن ينظر إليه وقيم باعتباره عملاً بشرياً سواء كان من جانب الحكومة أم من جانب المعارضة ، حتى لا تتهم الحكومة المعارضين بالكفر والإلحاد (وربما طبقت عليهم حد الحرابة ، كما حدث على مدى التاريخ) ولا تتهم المعارضة الحكومة والمجتمع بالكفر والإلحاد فتسوغ بأسباب من الدين أي فوضى أو اغتيال أو دمار .

٤ - تحرير الفقه الإسلامي : فحالة الجمود التي صار عليها هذا الفقه منذ القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) حبست العالم الإسلامي في آراء وأفكار وفتاوى صدرت منذ عشرة قرون لتلائم مكانها وتوائم زمانها . وقد أصبح تحرير الفقه الإسلامي ضرورة لا بد منها لتحرير الفكر الإسلامي ذاته ، والإنسان أينما كان . وقد قام بعض المستنيرين بجهود مهمة وملحوظة في هذا الصدد ، والمأمول أن يتكاثر الاجتهاد الصحيح ويتزايد الابتكار الرشيد ، حتى يصبح الفقه الإسلامي رائداً للتقدم وحافزاً للعمل ودافعاً للإنسانية .

٥ - تقويم العقل الإسلامي : فهذا العقل - في غالبه - منذ القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) يفترق التفكير المؤسس على السببية ، والذي يربط الأسباب بمسبباتها ، كما يفترق إلى الفهم المستند إلى العلية ، أي الذي يبحث عن علل الأشياء ودواعيها ودوافعها ، وبغير التفكير السببي لا يقوم علم بل ينحدر العقل إلى الخرافة ، ودون التعليل الصحيح لا يستوى منطق ولكن

يسقط الفهم فى مهاوى التخليط .

لابد للعقل الإسلامى من أن يعود إلى أصله الذى رسمه له القرآن وحدده له الإسلام الصحيح ، فيبحث عن الحقيقة بنفسه - بعد علم ودراسة - ويلتزم المنهج النقدى (أو الفحصى) الذى ينأى عن التسليم ، ويفحص كل شاردة وواردة ، دون أن يكتفى بالفتاوى المعلّبة أو بالأراء سابقة التجهيز ، والتي تريد أن تحكم الناس بالجهل لتحصل على السلطة وتجيب المال .

تلك هى أهم الأسباب اللازمة لإصلاح الفكر الإسلامى ، نرجو أن تجد دراسة بغير تحيز ، وتفهماً دون غرض ، وبمخناً لا اتهام فيه ولا تهديد .